حوارية النص والصورة، آسيا جبار قارئة لدولاكروا
(نساء الجزائر في مخدعهن)

د. سليم بتقة
جامعة محمد خيضر بسكرة

Un portrait de femme !
rien au monde n'est plus difficile,
c'est infaisable… c'est à en pleurer
Jean Auguste Ingres

ملخص:

نساء الجزائر في مخدعهن لآسيا جبار، عبارة عن مجموعة قصصية تقيم علاقة حوارية مع الرسم بما أنها تستعير عنوانها من لوحات ديلاكروا وبيكاسو، وهو مصدر الهام، لوضع مسار سرد يحكي قصة نساء الجزائر. إنه لقاء الرسم والكتابة، الطبيعة، الاشتغال والنتائج المترتبة على مثل هذا التبادل وهذا تحديداً من خلال القصة الأولى من المجموعة، التي ألفت سنة 1978 وتمثل إعادة كتابة لنساء الجزائر. بقراءة اللوحات وفك رموزها التصويرية وإخراجها في عمل إبداعي، تعمل جبار على هذه التوليفة في قصتها من خلال فضاءين، فضاء الحلم وفضاء الذاكرة، حيث تتولى نساء الجزائر استعادة الحياة والكلمة، والكشف عن أنفسهن.

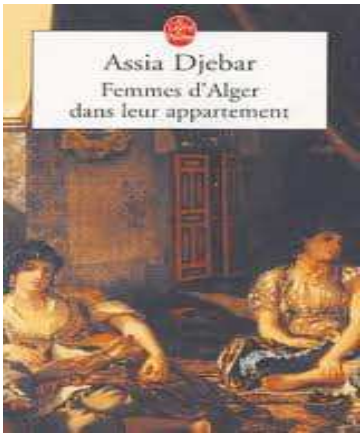

مقدمة: في القرن التاسع عشر تم تأسيس رؤية أسطورية عن الجزائر (بوابة الشرق الساحر) من خلال الفن عوالم غريبة من اللوحات والصور تجسد المناظر العجيبة، وتعكس انبهار الفرنسيين بهذا السحر والجمال وتنقل للمتلقي "المتروبوليتاني" مشاهد في كثير من الأحيان تعج بالأهالي الخاضعين، ونساء حبسن في بيوتهن. من بين أولئك الذين أصيبوا بهذا الهوس "أوجين دولاكروا"Eugène Delacroix (1798- 1863) بأعماله الإبداعية التي رسمها أثناء الرحلة التي قادته إلى المغرب، ثم الجزائر سنة 1832 خاصة منها: نساء الجزائر في مخدعهن *Femmes d'Alger dans leur appartement* 1834.

في سنة 1980 نشرت الكاتبة أسيا جبار عن دار Albin Michel للنشر بباريس مجموعتها القصصية المعنونة ب نساء الجزائر في مخدعهن، حيث اقترحت عملا مكتوبا وقدمته على أنه حوار بين الصورة والنص.

نساء الجزائر بريشة دولاكروا وقلم آسيا جبار، يجمع عنوان نساء الجزائر في مخدعهن بلدا هو الجزائر واسمين كبيرين في الثقافة العالمية: الفنان التشكيلي الفرنسي أوجين دولاكروا والأديبة الجزائرية آسيا جبار.

(نساء الجزائر في شقتهن) إذن تحاول أن تقيم حوارا مع الرسم، بما أنها تستعير عنوانها من لوحة دولاكروا، وهو مصدر إلهام لوضع مسار سردي يحكي قصة نساء الجزائر قبل، وبعد حرب التحرير. إنه لقاء الرسم بالكتابة، من خلال قراءة اللوحة وفك رموزها التصويرية التي اشتغلت عليها. كيف كان هذا الاشتغال؟ وما نتائج هذا التبادل وهذا اللقاء التناصي؟ هذا ما تحاول هذه المقاربة الإجابة عنه.

نسخة متحف اللوفر باريس 1834

نسخة متحف فابر بمونبيلييه 1849

السياق التاريخي للوحة نساء الجزائر في شقتهن لديلاكروا : في 1832 قام "أوجين ديلاكرو"ا *Eugène Delacroix* برحلة إلى المغرب ثم الجزائر. حيث رافق "الكونت دي مورناي" *comte de Mornay* المبعوث الخاص للويس فيليب لدى السلطان مولاي عبد الرحمن. للحصول على موفقته لاحتلال الجزائر، غير أن المهمة كللت بالفشل عاد منها بدفاتر مخططات ولوحات كانت نواة أعماله الفنية. في الجزائر العاصمة تعرف "ديلاكروا" على المهندس ومسؤول ميناء العاصمة السيد "بواريل" *Poirel* أحد المهتمين بالرسم، عرفه هذا الأخير على

شاوش وريس قبل الاحتلال يعمل تحت إمرته، وبعد محادثات طويلة، أذن لديلاكروا بزيارة حريمه، وهي الرغبة التي لم تتحقق له بالمغرب. قضى "ديلاكروا" أربع أمسيات في رسم زوجات القرصان الثلاثة. وبعد عودته إلى فرنسا أنجز لوحته المشهورة نسوة الجزائر في شقتهن *Femmes algéroises dans leur Appartement* سنة 1834، وهي الآن محفوظة في متحف "اللوفر"Musée de Louvre à Paris. وبعد خمس عشرة سنة، أعاد "ديلاكروا" رسم نفس اللوحة ولكن مع بعض اللمسات الجديدة كحجم اللوحة (0,80 x 1,12) عن نسخة "اللوفر" (2,29 x 1,80م).، وذلك باستخدام قماش Chevalet أما النسوة اللواتي كن قريبات من المشاهد، فقد جعلهن يبتعدن ويتباعدن، والنسخة الثانية هذه موجودة الآن في متحف فابر مونبيلييه Musée de Fabre à Montpellier

بطاقة فنية للوحة: (النسخة الأولى)

Artiste : Eugène Delacroix
Titre en italique :*Femmes d'Alger dans leur appartement*
Lieu d'exposition : Musée du Louvre
Création : 1834
Dimension :1,80m×2,29
Matériaux : Huile sur toile
Période : Romantisme

قالوا عن اللوحة:

Auguste Renoir "لا توجد صورة أكثر منها جمالا في العالم"

Paul Cézanne، "هذه الألوان الوردية الشاحبة وهذه الوسائد المطرزة، هذا الجذاء، وهذا الوضوح، أنا لا أعلم، تدخل في العين مثل كاس من النبيذ في الحلق، فنسكر على الفور".

Charles Baudelaire رأى فيها " قصيدة عن الداخل، مليئة بالراحة والصمت والأقمشة الغنية لا أعرف ما هو هذا العطر الرفيع لمكان سيئ والذي يقودنا بسرعة كافية نحو حدود غير مسبورة من الحزن".

Victor Hugo، الذي يعتبر بأن نساء الجزائر، هذه اللوحة الشرقية المتلألئة" من الضوء واللون هن النوع نفسه من القبح الجميل الخاص بالمخلوقات الأنثوية لديلاكروا".

Assia djebar"إذا كانت لوحة ديلاكروا تبهرنا دون أن نشعر، فليس ذلك في الواقع بسبب الشرق الظاهري الذي تقترحه في ظل من الرفاهية والصمت، ولكن لأننا ً أمام هؤلاء النسوة في موضع النظر وهو يذكرنا بأنه عادة ليس من حقنا ذلك. هذه اللوحة نفسها نظرة مسروقة".

Rachid Boudjedra في حديثه عن عبقرية ديلاكروا الكولونيالية يرى أنه لخص حالة الجزائر في تلك الفترة في بضاعة رخيصة وأشياء للزينة un regard de pacotille et de bimbeloterie

بعد السينما ... عودة إلى الكتابة القصصية: بعد عشر سنوات من الصوم عن الكتابة، تعود آسيا جبار عام 1980 إلى عالم الكتب بصوت أقوى وأكثر شراسة. كانت قبل ذلك قد أنتجت فيلما بعنوان (نوبة نساء مرتفعات شنوة) *La Nouba des femmes du mont Chenoua* بعدها حاولت مواصلة نشاطها السينمائي بفيلم عن نساء مدينة الجزائر لكنها لم تستطع. (سيناريو الفيلم اتخذته الكاتبة كمرتكز لعنوان مجموعتها القصصية) يبدو أن فيلم النوبة لم يتقبل بالقدر الذي كانت تطمح إليه الكاتبة، كما تهكمت الصحافة من "أنوثتها" Féminisme عبر الصورة غير أنها عادت بعد سنتين من صدور مجموعتها سنة 1982 إلى السينما من خلال فيلمها (الزردة أو أغاني النسيان). *La Zerda ou les chants de l'oubli*. هذه المرحلة الثانية من مشوارها الأدبي أطلق عليها بعض النقاد مرحلة

"النضج"، "الشجاعة"أيضا لأن الجزائر كانت تعيش حالة من عدم الاضطراب في تلك السنوات، بسبب التحولات السياسية والثقافية وحتى الهوياتية، تطلب معها الشجاعة " لـ "تصريخ الصمت " Crier le silence المفروض من طرف السلطات. في افتتاح مجموعتها (نساء الجزائر في شقتهن) *Femmes d'Alger dans leur appartement*، التي أعيد طبعها في 2002، تصرح آسيا جبار: "هذه القصص، بعض المعالم حول مسيرة استماع من 1958 إلى... إلى اليوم، سبتمبر 2001. ... لفترة طويلة- وتبعا بلا شك لصمتي، للمرأة العربية- ، أشعر كم يصبح الكلام في هذا المجال (باستثناء الناطقين و"المتخصصين") بشكل أو بآخر خرقا". دائماً بين الفرنسية والعربية، وبين النظرة المسروقة والعباءة المفروضة، بين "قول التاريخ" أو "السكوت" عن هذا الموضوع، اختارت أسيا جبار أن تتعدى هذه الحواجز وأن "تتحدث" عن "النساء وهن في حركة ."تظهر (نساء الجزائر في شقتهن) كحوار مع الفنانين، لأن آسيا جبار مزجت جيدا الفنين الاثنين، الكتابة والرسم، من أجل ولادة لوحة تستحضر من خلالها النساء الجزائريات بالأمس واليوم. عنوان الكتاب مستعار من اللوحة الشهيرة لـ"ديلاكروا" Delacroix حيث تظهر النساء الجزائريات حبيسات، وخاضعات، ومحاطات بجدران الحريم.. تعرض لنا آسيا جبار النساء وقد تحررن من نير العدو- - الرجل، نساء خرجن من الحريم بكرامة وبفضل ذكائهن وحكمتهن. تنتظم المجموعة القصصية (نساء الجزائر في شقتهن) في جزأين، "أمس" و"اليوم"، تتضمن ست قصص، وتنفتح على أخذ الكاتبة للكلمة، حيث تشرح الأسباب التي دفعتها إلى كسر صمت دام أكثر من عشر سنوات. يدعو هذا الكتاب إلى تحليل عميق جداً للطريقة التي اختارت بها النساء الجزائريات فهم الحرية الممنوحة لهن بفضل استقلال البلاد، والسنوات التي عاشت فيهن تحت النظام الاستعماري، وهل يمكن الحديث عن مشكلة الحرية التي"ابتلعت" دون التفكير في العواقب؟. يمكن تمثيل الأمر بشخص فقد في صحراء

لعدة أيام، وفي الوقت الذي يتم إنقاذه، يأتي على زجاجة الماء دفعة واحدة، ولا يشرب قطرة قطرة، حتى يستفيد الجسم أكثر. مقارنة أخرى تقدمها الكاتبة عن رجل أعمى استعاد بعد سنوات طويلة بصره، أول شيء قام به هو الذهاب على الفور لرؤية الشمس. افتتاحية المجموعة تبدو صعبة نوعا ما، نظراً لأن آسيا جبار لم تأخذ الكلمة دفاعا عن المرأة المسلمة "المحررة"، ولا لتقديم وجهة نظر موضوعية، ولكن "لتأنيبها". تفسر الكاتبة موقفها ضد أخواتها:

"لا للإدعاء بـ "التحدث لـ"، أو أسوأ، "التحدث عن"، بالكاد الحديث بالقرب من، وإذا أمكن كل ضد: التضامن الأولي لاضطلاع بعض النساء العرب اللواتي تحصلن على حرية حركة الجسد والروح. ولا ننسى أن أولئك حبسن وهن من جميع الأعمار، وجميع الظروف، لهن أجساد مسجونة، ولكن نفوس متحركة أكثر من أي وقت". من نتائج حرب التحرير كانت الحرية المكتسبة من طرف النساء للتعبير عن وجودهن، ولأخذ الكلمة ولكن أيضا إمكانية ارتداء أو عدم ارتداء العباءة التقليدية. حول هذا الموضوع، تعرض آسيا جبار الصعوبات التي تعيشها النساء العربيات- - أولئك اللواتي اخترن عدم ارتداء العباءة- للاعتياد على نظرات الرجال، المشي "متبرجات" في الشوارع، الانتقال من حالة إلى أخرى: من "المرأة" السجينة نحو المرأة "المعروضة". أبرز تطور عرفته المرأة العربية، - على الأقل في المدن- ، كان ترك العباءة. عدد من النساء، غالباً ما يعشن حقيقة تجربة التبرج في سن المراهقة، أو فترة الشباب المنغلقة، الجسد يتحرك خارج المنزل، للمرة الأولى يشعر وكأنه معروض أمام عيون الجميع: تصبح المحاولة جريئة، الخطوة مبكرة، اللهجة العربية تلخص التجربة بطريقة ذات مغزى: "لا أخرج محمية (أي محجبة، مغطاة)"، تقول المرأة التي تتحرر من العباءة. "أخرج متبرجة أو حتى عارية ". اللوحة الشهيرة، نساء الجزائر في شقتهن، نتاج "نظرة مسروقة" كما تقول آسيا جبار.

جبار قارئة لديلاكروا وبيكاسو: ديلاكروا يتلقى دعوة من صديق لزيارته بمنزله في الجزائر العاصمة، حيث دخل لبضع دقائق حريما. ما أن رأه حتى تفاجأ وصدم. إنها تجربة فريدة من نوعها بغرائبيتها ومتعتها، لقد تطلب الأمر سنتين لوضع على لوحة قماشية ما عاشه في وسط ذلك الحريم. في 1849، قدم الرسام نسخة أخرى للوحة. فقد وسع الإطار، وأضاف الضوء وبمجرد رؤيته لها، لم يتمالك "رينوار" العظيم Renoir نفسه فذرف دموعا. تقدر آسيا جبار موهبة ديلاكروا ولوحته الشهيرة، ولكنها تلاحظ أيضا الظلم الواقع على الجزائريات بسرقة وجوههن دون غطاء، والدخول في فضائهن الحميمي، وهو غريب، رجل لا ينتمي إلى الحريم أو إلى المدينة:

لوحة ديلاكروا تبدو كمقاربة لشرق مؤنث –وهي الأولى ربما في فن الرسم الأوروبي، المتعود على معالجة موضوع نساء الحريم أو استحضار قسوة وعري الحريم فقط. تبدو النسوة اللواتي رسمهن ديلاكروا في رائعته حزينات في عزلتهن. وتوضح آسيا أنه خلف النظرة المسروقة Regard volé، هناك صوت مكتومSon coupé.

لم يفت جبار ملاحظة إلى أي مدى عرض ديلاكروا في لوحته وصفا خارجيا أمينا لجسد الأنثى والشقق الخاصة التي يحتلها.

ألوان جميلة دافئة وغنية ومشرقة جد مقنعة مع الأقمشة الفخمة محاطة أكثر بأشياء سامية، يظل الطابع الميتافيزيقي لهذا الجسد بالكاد مرئيا، محسوسا، ولذلك تصف المؤلفة الشرق الذي قدمه "ديلاكروا" بطريقة سلبية:

"."شرق سطحي، في ظل من الرفاهية والصمت

في نظر المؤلفة، ينتمي "ديلاكروا" إلى أولئك الفنانين الأجانب، الذين وصلوا حديثا إلى الجزائر... والذين كان شغلهم الشاغل فقط تسجيل الألوان، والأزياء، والعادات الجزائرية.

وبتأمل لوحة "ديلاكروا" لا تتوقف جبار عن التساؤل: "قلب الحريم هذا المنفتح، أحقاً كما رآه فعلا؟"

لدى عودته إلى باريس، اشتغل الرسام على صورة التي رسخت بذاكرته والتي يشوبها الريب وعدم اليقين، إنه يستمد منها عمله الإبداعي الذي يجعلنا نتساءل دائماً.... الرؤية الجديدة تماما نظر إليها على أنها صورة خالصة. هذا التألق الجديد هو الذي طمس الحقيقة.

الدقة التي استطاع بها "ديلاكروا" جعل ووصف المظهر المادي للمرأة، يعرب بصعوبة- وفقا لجبار- ، عن هويتها الحقيقية.

في خاتمة مجموعتها القصصية، لاحظت جبار، من قراءتها للوحة، وجود عدم ارتياح في عمل "ديلاكروا" الإبداعي، وتتساءل عن الصدمة، أو على الأقل موجه الاضطراب التي تعرض لها الرسام خلال عمله ذاك.

لقد لاحظت أن طبيعة الضوء غير الواقعي يتناقض بغرابة مع دقة الألوان وتفصيل الأزياء. وهذا وصفها للوحة:

"نساء الجزائر في مخدعهن: ثلاث نساء اثنتين منهن يجلسن أمام الشيشة. والثالثة، في المقدمة، نصف مستلقية، تتكئ على وسائد. خادمة، ترفع ذراعها كما لو أنها تزيح الستائر الثقيلة التي تخفي هذا العالم المغلق؛ شخصية ذات طابع عرضي تقريبا، إنها تعمل على تجنب لمعان الألوان التي تكلل الثلاث نساء الأخريات. معنى اللوحة كله يكمن في العلاقة التي تربط أولئك النسوة بأجسادهن، وأيضا بمكان حبسهن. سجينات مستسلمات في مكان مغلق مضاء بنوع من ضوء الحلم القادم من أي مكان. عبقرية ديلاكروا تجعلهن حاضرات وفي نفس الوقت بعيدات، وغامضات.

إنه - تحديداً- هذا الضوء غير الطبيعي الذي يبعث على الشك، الذي يدفع بالمشاهد إلى التساؤل عما إذا كانت نساء الجزائر لـ"ديلاكروا"، حقيقة أو نتاج حلم، حلم الرسام.

لقد ظل مصدر الضوء في اللوحة لغزا كبيرا للفنان الفرنسي، حيث لم يجد النقاد التشكيليون مصدره داخل التحفة الفنية، ولو أن أكبر ما شد الفنانين الغربيين في الجزائر هو الضوء الطبيعي، فالشمس لم تكن شبيهة بأية شمس في مكان آخر، لذا تبدو الألوان مضيئة في لوحاتهم، وكانت عاملا فنيا ساعد على جمالية اللوحة، ذلك الضوء المحير على وجوه نساء "ديلاكروا"، مشرقات رغم وجودهن داخل غرفة من غرف القصبة ذات النوافذ الصغيرة الجانبية المتماشية مع تقاليد مجتمع محافظ .فمنذ ما يقارب القرنين بقي السر غامضا مبهما، وهذا ما روج لتحفة الفنان الفرنسي الذي كانت نساء الجزائر بملامحهن البربرية والموريسكية وأثوابهن وتفاصيل حياتهن السر الحقيقي في روعة ما رسمه، فقد اقترب لتصوير الحريم كحور العين. فقد قال عنه الشاعر الفرنسي الكبير "بودلير" Baudelaire بعد مشاهدتها في الصالون الدولي عام 1855: "هو فنان فريد لا أحد قبله ولا بعده". وتبقى لوحة "نساء جزائريات في مخدعهن" اللوحة الوحيدة التي رسم نسخة أخرى لها وعرضها في باريس عام 1849. وكانت وجوه الجزائريات المضيئة سر جمال لوحات فنانين آخرين عاصروا "ديلاكروا" مثل: "فرمنتان" Fromentin و"رينوار"Renoir و"إيتيان دينيه"Etienne Dinet.

وبعبارة أخرى، يبدو الحلم والواقع يميلان إلى تشكيل فضاء واحد في لوحة "ديلاكروا".

التفسيرات التي قدمتها جبار عن لوحة "ديلاكروا" خلق فيها الرغبة في استئناف واستكمال عمل الرسام. تريد أيضا الكاتبة أن تعطي بواسطة الكتابة ما تراه، غير مرئي في اللوحة.

إذن فعل الكتابة يظهر الحقيقة المغيبة عن المرأة الجزائرية، وهذا انطلاقا من نساء الجزائر والتي لا تزال أيضا غامضة لـ"ديلاكروا"، وهذا هو هدفها. وهكذا، تسعي جبار في قصة من قصص المجموعة، والتي تحمل نفس عنوان مجموعتها بداية إلى معرفة الرسام ثم الوصول إلى حقائق عن المرأة الجزائرية المقترحة من طرف اللوحة:

"لا أرى غير...البحث من أجل إعادة الحديث بين النساء، ذلك الحديث الذي عمل ديلاكروا على تجميده في اللوحة".

ما الخطوات التي استعملتها جبار لينجح هذا اللقاء بين الصورة والنص؟ في قصة "نساء الجزائر"، فضاء الحلم حاضر في كل مكان. لقد رأينا إلى أي مدى كانت أهمية الحلم الذي جانب الحقيقة في عمل "ديلاكروا". وعلاوة على ذلك، أليس كل فعل تصويري مرتبطا بالحلم بطريقة ما؟ هذا هو الافتراض الذي خرج به "بيير لوكي"، Pierre Luquet في مؤلفه (العين واليد) L'œil et la main، حيث يؤكد أنه "ينبغي اعتبار التفكير التصويري عملية عقلية... "، بالمعنى المقصود لعمل الحلم.

استخدمت جبار الحلم، وفضاءه وأساليب التعبير الخاصة بها (كالتشكيل، التكثيف، الانتقال، الترميز) كفضاء للوساطة بين لوحة "ديلاكروا" وكتابتها. وبهذه الطريقة، أمكن لها أن تدرس صور "ديلاكروا" وإظهار ما تخفيه. في الأصل نساء الحريم يهمسن، يتحدثن، ويصرخن. يظهر الرسام لنا عالم أنوثة صامت، دون أدنى ابتسامة تضيف الكاتبة. "هذا العالم من النساء، عندما لا يحدث ضوضاء من همسات من الحنان ،من الشكاوى

المفقودة، من رومانسيه ساحرة غائبة، يصبح هذا العالم فجأة، بائسا، عالما منطويا. فجأة تتكشف هذه الحقيقة دون مكياج دون ارتداد نحو قيم الماضي: الصوت مكتوم حقاً". قبل وقت قصير من حرب التحرير الجزائرية، وقع "بيكاسو" Picasso تحت تأثير لوحة "ديلاكروا"، وكما كان يحب النساء، أراد الرسام "تحريرهن" من خلال عمله الإبداعي، جميع جميلات الحريم. فرسم نساء الجزائر عام 1955 وهكذا، رقص النساء في لوحاته واستيقظت أجسادهن وفتح باب الحريم. وهذا ما كتبت عنه آسيا جبار في نهاية مجموعتها القصصية نساء الجزائر في شقتهن: "لا أرى إلا في مقاطع الهمسات القديمة كيفية السعي لإعادة الحديث بين النساء، ذلك الذي جمده "ديلاكروا" في لوحته. ولا آمل غير في الباب المفتوح بكامله على الشمس، تلك الباب التي فرضها "بيكاسو" فيما بعد، تحرير ملموس ويومي للنسوة".

تقاطع النص مع الصورة: المجموعة القصصية تعرض للمرأة المسلمة بالأمس واليوم، المرأة كما كانت وكما هي، بعباءة أو بغيرها، خاضعة أو حرةً. إنه تطور المرأة المسلمة من خلال التاريخ. إنها حرية الاختيار. المشكلة التي تطرحها آسيا جبار هي اختيار مسار بعد الاستقلال، هو مسار القرار الذي يجب أن تتخذه النساء المسلمات حول الحرية. آسيا جبار و"أوجين ديلاكروا"، الكاتبة والرسام أظهرا بالفن حالة المرأة المسلمة، أحدهما قبل والآخر بعد الاستعمار الفرنسي. إذا كان "ديلاكروا" "يسرق" نظرة من الحريم، فإن آسيا جبار تفضل دخوله. تتسلل آسيا جبار إلى شقق نساء الجزائر، تستمع إلى أصوات وصرخات وهمسات- الأمهات والبنات، والموتى السجينات إلى الأبد، الأحياء السجينات مدى الحياة، مأسورات حتى أنهن في صمت، حضور فارغ كهذه الشخصيات المعروضة والتي رسمها "ديلاكروا". خاتمة المجموعة Postface عبارة عن محاولة- آسيا جبار شرحها سبب اختيار العنوان والموضوع، مع إيلاء اهتمام

دقيق للوحة "ديلاكروا". الخاتمة معنونة "نظرة محرمة، صوت مقطوع"، تحاول الخاتمة فك الرسائل التي أرسلتها مختلف الترجمات المتتابعة المقترحة في لوحة نساء الجزائر في شقتهن من طرف "ديلاكروا". يمكن القول إن الخاتمة تمثل تحليل الكاتبة لمجموعتها القصصية، تحليل يسعى إلى فك الرسالة المرسلة من حركات البطلات. المجموعة القصصية، مقسمة إلى جزأين تتبع عن قرب الصور المرسلة من طرف "ديلاكروا" في نسخ 1834، 1849 على التوالي، إذن الخاصة بالأمس واليوم: نساء الجزائر في شقتهن: ثلاث نساء اثنتين منهن يجلسن أمام الشيشة. والثالثة، في المقدمة، نصف مستلقية، تتكئ على وسائد. خادمة، ترفع ذراعها كما لو أنها تزيح الستائر الثقيلة التي تخفي هذا العالم المغلق؛ شخصية ذات طابع عرضي تقريبا، إنها تعمل على تجنب لمعان الألوان التي تكلل الثلاث نساء الأخريات. معنى اللوحة كله يكمن في العلاقة التي تربط أولئك النسوة بأجسادهن، وأيضا بمكان حبسهن. سجينات مستسلمات في مكان مغلق مضاء بنوع من ضوء حلم قادم من أي مكان- ضوء حوض السمك- - عبقرية "ديلاكروا" تجعلهن حاضرات وفي نفس الوقت بعيدات، وغامضات في أعلى نقطة . تحليل آسيا جبار فيما يتعلق بلوحتي "ديلاكروا" يعمل على جمع جزئي مجموعتها. الجزء الأول "اليوم"، يعرض لأربع نساء يستحضرن بحركاتهن عواقب حرب التحرير، زمن المقاومة، الصمت المفروض . مقارنة بالماضي، يظهر الحاضر كهيئة متألمة من امرأة خانعة، ولكنها تحاول أن تخلق لنفسها مصيرا تحت شعار الحرية. يركز الجزء الثاني، "أمس"، على فكرتين رئيستين من لوحة "ديلاكروا" على الضوء نظر إليه كأمل وعلى الشعور بالسجن، والانغلاق، كإدانة للصمت. إذا قمنا بتحليل للوحتي "أوجين ديلاكروا"، يمكن أن نلاحظ تأثيرا كبيرا للضوء على وجوه النساء الجزائريات، شخصيات اللوحة الثانية، التي أنجزت عام 1849. في النسخة الأولى، لا يزال الرسام تحت تأثير

مباشر لذكريات رحلته مع إهمال تام للتفاصيل. النسخة الثانية تحت علامة الشعر ويلاحظ "جان ليماري" Jean Leymarie في كتابه (فن الرسم الفرنسي، في القرن التاسع عشر). *La peinture française au XIXè siècle* " الاختلاف كان طفيفا، في 1849، نساء الجزائر، المعروضة في متحف مونبلييه والتي أثرت بشدة على "فان غوخ" Van Gogh في خريف عام 1888، لا تزال أرقى من النسخة الأصلية والرائعة في متحف اللوفر بوحدة الإضاءة والإشعاع الحميمية والملحقات المحدودة.

النسخة الأولى، داكنة، تتألف من اللونين الأخضر والوردي، والنسخة الثانية أكثر "سخونة" بفضل الأصفر الذي يسمح للرسام بإضاءة وجوه النسوة الجزائريات، وبنقل رسالة من الفرح والتفاؤل".

خاتمة: في نساء الجزائر لم يرد "ديلاكروا" التعبير عن أي انشغال، ولكن ببساطة الحياة الهادئة والمتأملة في الحرم الفاخر: لا يوجد إذن شيء مسيطر، ولا للون مفتاح. كل الألوان الحارة العذبة تتوازن مع مكملاتها الباردة في "سمفونية" مزينة تعطي الانطباع عن حرم هادئ وممتع.

الصورة التي نقلها الرسام الكبير عن الجزائر وعن الواقع الجزائري حصرها في بضاعة رخيصة، وأشياء صغيرة للزينة. نحن الآن في سنة 1832 المدافع لا تزال تدك العاصمة بطريقة بربرية لا تصدق، فما تحاول اللوحة أن تنطق به من سلم ومودة هي مغالطة فظيعة وكذب. يمكن القول الآن أن أولئك النسوة الجزائريات في مخدعهن ملصقة لبيع الكولونيالية وتسويقها. لقد ساعد "أوجين ديلاكروا" "لويس فيليب" Luis Philipe على توسعة مستعمرته، إن لوحاته لم تكن بريئة. يحسب على الفنانين المستشرقين أنهم كانوا يعملون لصالح سياسات بلدانهم الاستعمارية، فقد خطوا الكثير من الخرائط والصور التي استعانت بها الجيوش في احتلالها لأوطان الآخرين، وكان دولاكروا واحدا

منهم. وفي هذا الصدد يقول بيكاسو الذي حاول محو نظرة دولاكروا الاستعمارية، واستبدلها بنظرة ثورية حين رسم خمس عشرة نسخة لنساء الجزائر في مخدعهن حين حررهن من القيد الذي سجن فيه : " ...الرسم لم يجعل لتزيين الشقق، إنه آلة حرب هجومية ودفاعية ".

بفضل المجموعة القصصية نساء الجزائر في شقتهن، تحول آسيا جبار اللامرئي إلى مرئي، بمعنى المخفي، أو النظرة المسروقة تصبح بفضل لوحة الكتابة،واقعا وعالما مفتوحا لمن يقرأ هذه "اللوحة" ولكن أيضا لمن يراها. الكاتبة المغاربية تزيل الحجاب عن النساء المسلمات مرة أخرى، ولكن هذه المرة تذهب إلى أبعد من ذلك، نحو داخل المرأة ومشاعرها وأفكارها. إنه حجاب الروح والعقل الذي استطاعت آسيا جبار نزعه عن المسلمات اللاتي يعشن في بلد مستقل.

مراجع الدراسة:

- سليم بتقة: سراب الاستشراق، مقاربة سيميولوجية للوحة ديلاكروا، ورقة مقدمة لملتقى السيمياء2010.12.12- جريدة الفجر، نساء جزائريات في أشهر اللوحات التشكيلية العالمية.

-Djebar, Assia –Femmes d'Alger dans leur appartement, Paris, Éditions Albin Michel, 2002.

-Ben Saad, Nizar –«Écrire dans la langue de l'Autre: risques et enjeux» in Revue de littérature comparée, no. 3, 2008, pp. 289 –298.

-Berrichi, Boussad –Assia Djebar, une femme, une œuvre, des langues, Paris, Éditions Séguier, 2009.

-Chebel, Malek –Dictionnaires des symboles musulmans, Éditions Albin Michel, 1995.

-Chikhi, Beïda –Maghreb en textes. Écriture, histoire, savoirs et symboliques, Paris, Éditions l'Harmattan, 1996..

-Vauday, Patrick –La décolonisation du tableau, Éditions du Seuil, 2006

- Farah Aïcha Gharbi, Femmes d'Alger dans leur appartement d'Assia Djebar : une rencontre entre la peinture et l'écriture, Études françaises, Volume 40, numéro 1, 2004, p. 63-80